الواقعيَّة لا تُعَادي الفن

عَقَّبَ الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي محرر الصفحة الأدبية في جريدة (الشعب) على كلمتي في الواقعية والكلبية، فبدأ تعقيبه بكلام ينم عن حرجه من نشر ما يخالف رأيه أو يعارض مذهبه. ثم خفف عن ضميره ثقل التبعة بأن ألقى عليَّ مسئولية ما كتبت، وفَوَّضَ الأمر في الرفض أو القبول إلى القارئ الذي يثق به، والعامي الذي يعتمد عليه، ودعا جميع الواقعيين المصريين إلى مناقشتي فيما رأيت، أو محاسبتي على ما جنيت!.

وكنت أحب للأستاذ الشرقاوي أن يبدأ بغير هذا الكلام، فإني أعيذه بالله أن يجري على خاطره معنى من معاني الحجر على حرية الفكر وهو من (الذين اندفعوا مع حركة الزمن إلى أمام).

وكلمتي التي كتبتها لأحدد فيها العلاقة بين الواقعية والفن والطبيعة لم تمس بوجه من الوجوه عقيدة من عقائد الدين، ولا فضيلة من فضائل الخلق، ولا مادة من مواد القانون، ولا سنة من سنن العرف.

ولم يخطر ببالي وأنا أكتبها أدباء معينون لا من الشباب ولا من الشيوخ؛ ففيم إذن هذا الضيق؟ ولم إذن هذا الغمز؟ وعلام إذن هذا الاستعداء؟

يظهر لي ولمن قرأ المقالين أن الأستاذ الشرقاوي قد حاول جاهدًا أن يلتمس فيما كتبت المقالين موضعًا للتعقيب فلم يجد، ولكنه وعد بأن يعقب فاكتفى بأن يقول: " إنه أحد الذين لا يوافقون على كل ما في هذا المقال من أفكار " واضطر إلى أن يخرج على مبادئ الواقعية فترك الموضوع وأمسك بالذات، وأهمل المكتوب وتعلق بالكاتب!.

ضربت المثل في مقالي بفلوبير، وضرب المثل في رده بمنيرة المهدية، وهو لا يقصد بالطبع إلى أن منيرة من زعيمات الواقعية، وإنما يقصد إلى أنها " لم تحترم ذكرياتها فوقفت تغني منذ ثلاثة أعوام، كما كانت تغني منذ ثلاثين عاما " فهو يضربها مثلاً لأمثالنا (الذين رفضوا أن يندفعوا مع حركة الزمن إلى أمام) ثم لا يزالون يكتبون! وكان الأجدر بالأستاذ الشرقاوي أن يضرب المثل بأم كلثوم، فقد عاصرت (منيرة) ولا

تزال أميرة الغناء العربي في العالم كله دون أن تنزل إلى مبتدعات عبد الوهاب والطويل!.

على أن ملكة الكاتب لا يعتريها ما يعتري حنجرة المغني من الخشونة والضعف بتقدم السن. وليست الكتابة بقوة العضل واكتناز اللحم، وإلا لم يظفر بجوائز نوبل شيخ من شيوخ الأدب والعلم. ثم تلطف الكاتب الشاب فنعتني بأستاذية الأدب القديم، ونصحني أن آخذ في كلام غير الواقعية وأسمعني من (زركشة الأكفان) و (برودة الرخام) ما لم أفهم، وقوّلني عن الواقعية وفلوبير ما لم أقل.

وكل ذلك لغو لم يوجبه خطأ واقع، ولا ضغن قديم، ولا خلاف حادث، وإنما هو الاعتقاد الشائع بأن النقد أو الرد يحدث من الدوي بلسع اللسان وافتراء الباطل أكثر مما يحدثه بسداد المنطق وإتباع الحق!.

وكان الظن بالأدباء الشباب الذين يدعون إلى أدب أفضل وأسلوب أحسن أن ينهجوا للنقد منهجًا يتفق مع سمو الشعور ورقي العقل.

لندع هذا ولنعد إلى حديث الواقعية، وليغفر لي الأستاذ المعقب إعراضي عن نصيحته هذه المرة، فإني إن سكت لا ينحسم بسكوتي الخلاف بيني وبينه. ولكن أي خلاف؟.

أنا لا أعلم بيني وبين الأستاذ الشرقاوي ولا بيني وبين غيره خلافًا في مدلول الواقعية العالمية، لا من حيث الينبوع والموضوع، ولا من حيث الطريقة والغاية.

وأظنني قد اتخذت من أصولها مذهبًا لنفسي جريت عليه منذ كتبت، لا يختلف عنها إلا بتقويم الجمال وتقدير الخلق. وما كان لي أن أكتب على غير هذا المذهب بعد ما فرضته عليَّ الطبيعة والبيئة، فقد نشأت في قرية صغيرة فقيرة من قرى مركز طلخا، وهو أوحد المراكز المصرية جميعًا في فحش النظام الإقطاعي وفجوره.

كان يملكه طوسون والبدراوي ومحمد علي وسيف الدين وسرسق ووزارة الأوقاف، فلم يكن للفلاح الذي يعيش فيه إلا أمتار ينام فوقها وهو حي، وأشبار يرقد تحتها وهو ميت .. وفي المدة التي تفصل بين انتقاله من ظهر الأرض إلى بطنها كان

عبدًا للمالك يستذله ويستغله ويملك عليه الحياة والموت. كان يعمل ولا يجد القوت، ويمرض ولا يجد الدواء، ويُظلم ولا يجد الرحمة.

في غمرة هذا البؤس الذي لا حد له ولا حيلة فيه نشأت وعشت، فرأيت الأمير كيف يطغى وينسى الله، والباشا كيف يبغي وينسى العدل، والفلاح كيف يذل وينسى الحرية، والأجير كيف يهون وينسى الحياة.

ومن ينبوع هذا الشقاء الذي لا ينصب معينه ولا يسكن تياره استمددت موضوعاتي التي ضمها كتابي (وحي الرسالة) في مجلداته الأربعة. والقراء يذكرون أني أول من كتب عن أعدائنا الثلاثة: الجهل والفقر والمرض، ووضعت لمكافحتها المنهاج المفصل لوزارة الشئون الاجتماعية في سنة 1939م.

ربما كان الخلاف بين الواقعية المصرية والواقعية الأوروبية، أو بين الواقعية المتطرفة والواقعية المعتدلة، أن من الواقعيين المصريين من يريد أن يهبط باللغة والأسلوب إلى مستوى الأميين فيكتب لهم بالعامية ويدني المعاني من أفهامهم بتجريد الأسلوب من خصائصه البلاغية وسماته الجمالية حتى لا يكون الأدب في ذاته غاية يصفو به الذوق وتسمو به الروح وتجمل به الحياة، والواقع الذي تحققته من اختلاطي بالشعب في حياة القرية وتحرير الرسالة أن القارئين من الزراع والصناع يفضلون الشعر على الزجل، ويتأثرون بالمقال البليغ أكثر مما يتأثرون بالقول الساذج. والأدب هو الجزء السماوي في الإنسان ينزع به دائمًا إلى ما هو أعلى وأكمل؛ فهو له كالجناحين للملك، يرفعه من كثافة المادة إلى لطافة الروح. ومن واجب الأديب أن يقوي هذا النزوع في نفوس الشعب بتصوير المُثل العليا للجمال والفضيلة وحمله بطريق التثقيف على أن ينظر إليها من فوق رأسه لا من تحت قدميه.

إن الحياة فيها المسجد والسوق، وفيها المدرسة والمصنع، وفيها الحديقة والمعلم، وفيها الاستديو والورشة، وكل جهة من الجهات المعنوية تعدِّل الجهة التي تقابلها من الجهات الحسية، فلماذا نُكره الأدب على أن يتقلب في الجهات الدنيا لا في الجهات العليا، وأن يعيش مع ابن آدم في حيوانيته لا في إنسانيته؟.

إن الأدب للشعب كله ما في ذلك خلاف، ولكنه إذا نزل إلى عامته فإنما ينزل ليرفعهم إلى السطح لا ليغوص معهم إلى القاع. وقول من يقول: إن الأدب للأدب يدخل بهذا المعنى في قول من يقول: إن الأدب للحياة.

إن الواقعية بمعناها العام مذهب من مذاهب الأدب. والأدب عند الأمم جميعًا فكرة سليمة في صورة جميلة، وجمال الصورة في كل لغة لا يتحقق أولا وبالذات إلا بسلامة العبارة من الخطأ والغثاثة.

والواقعية لا تعادي الفن ولا تنافيه. والواقعيون أجمعون هم من الكتاب الأفذاذ الذين أوتوا ملكة البيان وفقهوا أسرار البلاغة. وما نعرف أحدًا منهم تعاطى الكتابة في لغته وهو ينكرها كل الإنكار ويتنكر لأدبها كل التنكر، فهل يريد الواقعيون المصريون أن يكونوا بدعًا من سائر الكتاب فيفصلوا بين الواقعية والفن وبين الكتابة واللغة؟.

إن كانوا يريدون ذلك فهو الخلال الذي لا ينتهي بيننا وبينهم، وإن كانوا يدعون إلى واقعية مصرية تنبثق من حياة الشعب، وتحرص على تقاليد العروبة، فتؤثر الفصحى وتقدس الخير وترعى الجمال فأنا وإياهم على كلمة سواء.